ISSN 2170-0796

عبادة الحج (دروس وحِكم)

د. منقذ بن محمود السقار

1-ينشغل الناس أيام الحج في السؤال عن دقيق المسائل المتعلقة بالحج، فأحدهم يسأل عن شعرات سقطت من رأسه عندما حكه، وآخر يسأل حصاته التي ضربت في شاخص الجمرات ثم خرجت من الحوض، وهكذا. وهذا يدل على حرص محمود على أداء الشعائر على أكمل وجه.

2- ثمة أمر آخر أهم يغفل عنه الناس هو الحِكم التي من أجلها شرع الله هذه العبادة، وهل يحققها كل من الحجيج أم لا يدركها أصلاً.

3- كل ما أمر به الله من شرائع فإنه تندرج تحته حكم من حكم الله البالغة التي تعود علينا بالنفع في دنيانا وأخرانا، وقد يغيب عن ناظرينا بعض هذه الحكم، فيما ندرك كثيراً منها، لكن المقصود الأول من تشريع العبادات هو إصلاح الإنسان وتهذيبه وتربيته. قال ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها.[أعلام الموقعين 3/3].

قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذي القوة المتين } [الذاريات:56-57].

قال تعالى: {لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم} [الحج:37]. قال ابن كثير: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق، لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه. (تفسير القرآن العظيم 5/428).

وعن الصيام قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة:183]. فثمرة هذه العبادة أن يحقق العبد التقوى.

قال تعالى: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون} [العنكبوت:45]. وفي الحديث: ((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)) [رواه ابن أبي حاتم في تفسيره].

وقال تعالى: {والبُدْن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير} [الحج:36]. قال مجاهد: أجر ومنافع.

4- الحج كسائر العبادات شرعها الله عز وجل لحكم، وواجب على الحاج أن يسعى في تحقيق هذه الحِكم.

5- وحِكم الحج كثيرة، ومن هذه الدروس والحِكم :

أ. ذكر الله، هو أول المقاصد التي أرادها الله من هذه العبادة، حيث أراد أن ترتبط القلوب به خلال أيام الحج، فكان كثير من العبادات يهدي إلى ذكر الله، وهو ما نقرأه من خلال هذه النصوص.

- {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات} [الحج:27-28].

- ويصعد الحاج إلى عرفات ليدعو الله ويذكره قال ﷺ: ((خير الدعاء دعاء عرفة..)) [رواه الترمذي 3585].

- ويغادر الحاج عرفات إلى مزدلفة، إلى المشعر الحرام ليذكر الله. {فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} [البقرة:198-199]. وهذا ما صنعه ﷺ كما في صحيح مسلم: ((ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً)) [مسلم ح 1218].

وهو ما صنعه أصحابه من بعده قال سالم: كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقدم ضعفة أهله، فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بليل فيذكرون الله ما بدا لهم ثم يرجعون. [رواه البخاري ح 1676].

- وتبدأ أيام منى وهي أيام ذكر لله قال الله: {واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى} [البقرة:203].

- وإذا ذبح الحاج هديه ذكر الله {ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام} [الحج:34]. وقال: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف} [الحج:36].

- ثم خلال مناسك الحج يتكرر ذكر الله في مواطن عدة منها التلبية وقد ثبت عنه ﷺ التلبية بعد إحرامه من ذي الحليفة. [البخاري 1714]. وفي صحيح مسلم أنهم لبوا وهم خارجون إلى عرفات [مسلم 1285].ثم في مزدلفة [أحمد ح 3966]. وحين أفاض من مزدلفة [مسلم 1283].واستمر في التلبية حتى رمى جمرة العقبة. [النسائي 3056، وأبو داود ح 1815].

وإذا انتهى الحاج من حجه فعليه أن يلزم ذكر الله ولا يدعه.{فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً} [البقرة:200].

ب. ومن دروس الحج وحِكمه الاستسلام والامتثال لأمر الله، وهو ما نتربى عليه في عدد من شعائر الحج، وذلك تراه في امتثال الحاج وقيامه بالكثير من العبادات التي قد لا يرى وجه الحكمة فيها كالطواف والسعي ولونها سبعاً والابتداء بالطواف من الحجر الأسود، والسعي من الصفا، ورمي الجمرات بسبع حصيات. وكل ذلك يصنعه الحاج امتثالاً لأمر الله واستسلاماً لشرعه.

ISSN 2170-0796

وقف عمر أمام الرّن فقال: (أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ استلمك ما استلمتك، فاستلمه ثم قال: فما لنا وللرمل (السعي الشديد بين الميلين الأخضرين في المسعى) إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله ثم قال: شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه) [رواه البخاري ح 1605].

قال يعلى بن أمية: طفت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما كنت عند الرّن الذي يلي الباب مما يلي الحجر أخذت بيده ليستلم فقال: (أما طفت مع رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: فهل رأيته يستلمه؟ قلت: لا، قال: فأنفذ عنك فإن لك في رسول الله أسوة حسنة). [رواه أحمد 255].

وهذا الدرس تعلمه من هاجر حين تركها إبراهيم في بطحاء مكة حيث لا ماء ولا زرع فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بها الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: ((آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت)). [البخاري ح 3364].

قال عمر بن الخطاب(فيم الرملان اليوم والكشف عن المناكب وقد أطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله مع ذلك لا ندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ)[رواه ابن خزيمة ح1669، وأبو داود ح1887 ، وابن ماجه ح2952]

ج- ومن دروس الحج حسن الخلق والصبر على مشاقه حسبة لله وابتغاءً لأجره جل وعلا، وقد أشار رسول الله إلى هذه المشاق بما روي عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله على النساء جهاد؟ قال: ((نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة)) [ابن ماجه ح2901].

وأثناء هذا الجهاد ينبغي أن يتحلى بحسن العشرة وتريم الأخلاق والصبر على ما يصدر من الناس بسبب الزحام والتعب وغيره،قال تعالى: {فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج} [البقرة:197]. قال ﷺ: ((من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)) [البخاري1521].

وعن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. قيل: وما بره؟ قال: إطعام الطعام وطيب الكلام)) [رواه أحمد ح 14073،و ابن خزيمة ح 2514].

د – من دروس الحج مخالفة المشركين بل وإغاظتهم.

والحج عبادة شرع الله شعائرها لإبراهيم عليه السلام، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ ((تونوا على مشاعركم فإنكم اليوم على إرث من إرث إبراهيم)) [رواه الترمذي ح833،وابن ماجه ح3011، والحاكم ح1699]

ثم غيرت قريش وبدلت حسب هواها، فلما بعث النبي أقام شعائر الحج كما أمر الله وهجر ما كانت عليه قريش.

ومن ذلك أن قريشاً كانت دون سائر العرب لا تقف في عرفات بل في مزدلفة قالت عائشة: (فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} [رواه البخاري 4520].

وفي حديث الترمذي أنهم كانوا يقولون: ((نحن قطين الله)) أي سكان حرم الله فلا نخرج من الحرم. [الترمذي 884]. وفي رواية ابن ماجه قالت عائشة: (قالت قريش: نحن قواطن البيت لا نجاوز الحرم) فقال الله: {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس} [ابن ماجه 3018].

وقد تعمد رسول الله مخالفة المشركين في ذلك، ففي صحيح مسلم عن جابر: فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة. [مسلم ح 1218].

قال سفيان: وكان الشيطان قد استهواهم فقال لهم: إنكم إن عظمتم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم، فكانوا لا يخرجون من الحرم. [فتح الباري3/516].

وقد كان عموم المشركين يغادرون عرفات في الظهيرة، فخالفهم رسول الله وجعله بعد الغروب.

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال (كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال، كأنها العمائم على رؤوس الرجال، دفعوا، فأخر رسول الله الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس). [رواه ابن خزيمة في صحيحه ح 2838]. وعن المسور بن مخرمة قال ثم خطبنا رسول الله ﷺ بعرفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال((أما بعد فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من ها هنا ثم غروب الشمس حين تكون الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها فهدينا مخالف لهديهم وكانوا يدفعون من المشعر الحرام ثم طلوع الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها، فهدينا مخالف لهديهم))[رواه الحاكم في المستدرك ح3097، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي على تصحيحه]

ISSN 2170-0796

ومن مخالفة الجاهلية في الحج الأمر بالتزود له، جاء في حديث ابن عباس أنه قال: (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}) [رواه البخاري 1523].

قال أبو الطيب الآبادي في قولهم (نحن المتوكلون): الحال: أنهم المتأكلون أو المعتمدون على الناس. [عون المعبود3/107].

ومن مخافة النبي ﷺ لأمر الجاهلية أنه شرع التمتع بالعمرة إلى الحج، خلافاً لشريعة الجاهلية التي تمنع الجمع بينهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كانوا يرون أن العمرة لمن اعتمر).

((قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة محلين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عندهم فقالوا: يا رسول الله أي الحل؟ قال: حل كله)) [رواه البخاري ح 1564، ومسلم 1240].

وروى ابن حبان عن ابن عباس قال: "والله ما أعمر رسول الله ﷺ عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك فإن هذا الحي من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عفا الوتر، ووتر الدبر فقد حلت العمرة لمن اعتمر". [رواه ابن حبان ح3757].

وقولهم: (إذا برا الدَّبر) معناه أي شفيت الإبل من مشقة السفر وآثار الأحمال التي حملت عليها في رحلة الحج.

وقولهم: (وعفا الأثر) أي اندرست آثار سير هذه الإبل أو اندرست آثار الدبر المذكور. [عون المعبود 3/320].

ومن المخالفة أيضاً مخالفة الجاهلية في تلبيتها حيث كانوا يلبون كما في صحيح مسلم: ((لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك))، فكان ﷺ إذا قالوا: لا شريك لك، قال: ((ويلكم قدْ قدْ)) [مسلم 1185]. ومعناه أي يكفي هذا القول.

وفي مخالفتهم شرع ﷺ التلبية الشرعية: ((لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك)) [البخاري ح 1549].

ومن مخالفة المشركين أيضاً ما ذكره عمر بن الخطاب عن سبب مبادرة النبي للخروج من مزدلفة قبيل طلوع الشمس.

قال عمرو بن ميمون شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجُمَع (مزدلفة) الصبح ثم وقف فقال: (إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون: أشرق ثبير، وأن النبي ﷺ خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس) [البخاري ح 1684].

وقولهم: أشرق ثبير. معناه: لتطلع الشمس عليك يا جبل ثبير.

وقد جاء في مسند أحمد أنهم كانوا يقولون: (أشرق ثبير كيما نغير) [أحمد ح 297]. أي نمشي إلى النحر.

وقد كانت مواسم الحج في الجاهلية محلاً للتفاخر بالآباء والتنافس بالأشعار وسواها، فجعلها الله محلاً لذكره، قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم يقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، ليس لهم ذكر غير ذكر فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ: {فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً} [البقرة:200].

هـ - ومن حكم مشروعية الحج ودروسه إغاظة المشركين، فثمة أمور صنعها النبي ﷺ أول ما صنعها إغاظة للمشركين، وليس مخالفة لهم فحسب، ونحن نصنعها تأسياً به ﷺ، من ذلك الرمل في السعي والأشواط الثلاثة الأولى في الطواف.

قال ابن عباس: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا بين الركنين. وفي مسلم: ((ليرى المشركون جَلَدهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا)) [البخاري 1602، ومسلم 1266].

قال عمر رضي الله عنه عن الرمل: (إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله، ثم قال: شيء صنعه النبي ﷺ، فلا نحب أن نتركه) [البخاري ح 1605].

والاضطباع وهو كشف الكتف والذراع الأيمن، وقد كان أيضاً لإغاظة المشركين، يقول ابن عباس: بلغ أصحاب رسول الله أن قريشاً تقول (عن الصحابة): ما يتباعثون من العجف (يتندرون بضعفهم)، ثم أقبل رسول الله حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع بردائه ثم قال: ((لا يرى القوم فيكم غميزة)) [أحمد 2778].أي ضعفاً يغمزونكم به.

وأخيراً فإن رجم الجمار تجديد لعداوتنا الشيطان، وترغيم له، وهو يذكرنا بصنيع أبينا إبراهيم حين أراد الشيطان أن يثنيه عن طاعة الله في ذبح ابنه إسماعيل، فرجمه إبراهيم في هذه المواضع ورغمه، ونحن نرجم الجمرات تأسياً بإبراهيم عليه السلام وترغيماً للشيطان نرجم ما يدل عليه ويرمز إليه.

و- ومن دروس الحج أيضاً تذكر الحشر الأكبر، وهو درس تعلمنا إياه زحمة الحجيج ومشقة المناسك وحر الصيف، فيما تذكرنا ملابس الإحرام بأكفاننا التي نساق فيها إلى قبورنا.